بمناسبة مرور نصف قرن على رحيل الفنان جواد سليم، أقامت مؤسسة المدى للإعلام والثقافة و الفنون حفلاً فنياً، أحيته الفرقة السمفونية العراقية في ساحة ١٤ تموز "الحرية" و في ظلها. ونظراً للعلاقة التي جمعت المعماري رفعة الجادرجي و جواد سليم في خلق هذا المعلم التاريخي الرائع، فقد وجهت السيدة بلقيس شرارة جملة من الأسئلة إلى رفعة الجادرجي تتعلق بالنصب، وقد أجاب عليها بما اختزنته الذاكرة.

حوار أجرته: بلقيس شرارة

رفعة الجادرجي يتحدث لـ المدى عن تفاصيل العمل في نصب الحرية:

التصميم المعماري لي والنحتي لجواد سليم

رفعة الجادرجي

لم تكن لديّ أدنى فكرة من أين أبدأ بالتصميم. كانت شوارع بغداد الرئيسية تزدحم بالتظاهرات، و أصوات المشاركين تبحّ من كثرة الهتافات. فقررت أن يكون التصميم عبارة عن لافتة كبيرة تعبّر عن ثورة ١٤ تموز

× من الشخص أو الجهة التي كلفتك بتصميم نصب ١٤ تموز، و هل كانت مسابقة بينك و بين معماريين آخرين؟ و ما هي ظروف التكليف؟

–كنت على معرفة بقائد الفرقة الخامسة علي غالب عزيز، و التقيته في مناسبات عدة. فعندما اتصل بي تلفونياً لم تكن مفاجأة بالنسبة لي. كانت المخابرة عند الساعة الخامسة مساء في مكتبي الخاص، الواقع في شارع الملك فيصل الثاني، حيث كان الدوام اليومي من الساعة الخامسة حتى الثامنة مساء. أبلغني أن الزعيم عبد الكريم قاسم يطلب تصميم ثلاثة أنصبة و هي: الجندي المجهول، و نصب ١٤ تموز و نصب الحرية.

قلت له: أنا مستعد، لكن متى يريد هذه التصاميم؟

أجابني: غداً، الساعة العاشرة صباحاً. لم يكن عندي مشكلة بالنسبة إلى نصب الجندي المجهول، فقد صممت السكيج خلال بضع دقائق، و السبب في ذلك، عندما كنت مدير هندسة الأوقاف و إدامة الجوامع قبل أربع سنوات من ذلك التاريخ،ُطلب مني تصميم جامع جديد باسم جامع سراج الدين، و سعيت إلى تحديث شكل الجامع، فجاء تصميمه يتضمن قوساً متأثراً بقوس (طاق كسرى)، بدلاً من القبة المعتادة للجوامع، و التي يرجع شكلها إلى العمارة البيزنطية. ألغي بعدها المشروع و لم ينفذ. لذا صممت السكيج الأولي للجندي المجهول، مسخّراً شكل القوس (الطاق) المشار إليه، مع إضافات تصميمية جديدة عليه. كان منها تسخير مبدأ الـ entasis ، و استحداث انحناءات لتلافي ضعف الشكل كما ينظر إليه من مسافة بعيدة نسبياً.

و بهذا المعنى فقد جاء السطح الأعلى للقوس مرتفعاً في الوسط بمقدار عدة سنتيمترات لكي يظهر منخفض في وسطه حين النظر إليه من بعيد. كما برّزت اللوحة الوسطية عن القواعد الجانبية و في ذلك منظر مستقر،وجعلت القواعد الجانبية تميل و تتوسع في قاعدتها، مما يمنحها كذلك مظهر المتانة بسبب تحمل ثقل اللوحة.

أما في ما يتعلق بنصب ١٤ تموز فلم يكن لديّ أدنى فكرة من أين أبدأ بالتصميم. كانت شوارع بغداد الرئيسية تزدحم بالتظاهرات، و أصوات المشاركين تبحّ من كثرة الهتافات. فقررت أن يكون التصميم عبارة عن لافتة كبيرة تعبّر عن ثورة ١٤ تموز، كنقلة رئيسية في تاريخ العراق، بدل تلك اللافتات الهزيلة و الزائلة. وضعت مبادئ التصميم، غير أنني لم أفكر في التصميم الثالث و هو نصب الحرية، باعتبار أن دوام المكتب سينتهي في الثامنة.

ذهبت في اليوم الثاني إلى وزارة الدفاع، قبل العاشرة صباحاً، و قابلت عبد الكريم قاسم، و عرضت عليه التصميمين، فوافق عليهما من غير نقاش. كنت المخوّل الوحيد للتصميم، و لم يسألني عن النصب الثالث، نصب الحرية. و لم يعرض التصميمين على أيّ لجنة.

× من كلف جواد سليم أن يقوم بالمنحوتات الجدارية، و هل عرض الموضوع على فنانين آخرين؟

–لم يعرض الموضوع على فنانين آخرين، و إنما بعد أن تركت وزارة الدفاع، قررت أن يكون جواد النحات لهذه المنحوتات. فاتصلت به تلفونياً، و زرته في داره. و أخبرته أنني كُلفت من قبل عبد الكريم قاسم بتصميم نصب ١٤ تموز، الذي وافق على التصميم الذي عرضته عليه. و كلّفني بإجراء ما يلزم. فهنالك لوحة بطول ٥٠ متراً و بارتفاع ١٠ أمتار، يتعين أن تُملأ بتماثيل نحتية جداريه، تعبّر عن ثورة ١٤ تموز.

× و ما كان انطباع جواد؟

– اندهش جواد، قائلاً: لم يحدث مثل هذا التصميم منذ زمن الآشوريين. أجبته: فليحدث الآن.

× من كان مخوّلاً بتخصيص المبالغ للأنصبة؟

– بعد تكليفي من قبل عبد الكريم قاسم، بُلّغت من قبل وزارة الدفاع من أنه سيخصص مبلغاً لذلك. ففتحت حساباً مصرفياً في بنك الرافدين، فرع العلوية، باسم النصب التذكاري فرع العلوية. و طلبت من حسن رفعت أن يكون الموقّع الثاني على الصكوك. كان حسن رفعت آنذاك رئيس الهيئة الفنية في أمانة العاصمة، و هو شخص معروف باستقامته.

× هل بحثت كلفة الأنصبة؟ و من كان يدفع التكاليف الإنشائية و هل هناك لجنة و من هو المخوّل؟

– لم تبحث كلفة العمل من قبل أي جهة، لكن كلما كنت أحتاج إضافة إلى الرصيد، كنت أطلب من الجهة المتخصصة أن تحول المبلغ المطلوب إلى البنك. و لا أذكر من كانت الجهة التي تخصص و تدفع المبالغ، أمانة العاصمة، أم وزارة الدفاع. كانت كلفة نصب ١٤ تموز حوالي ١٢٠ ألف دينار عراقي.

× هل عرض عليك جواد المبادىء العامة للمنحوتات و هل حصل نقاش بينك و بينه حول الموضوع؟

– خلال أيام قليلة هيّأ جواد مبادئ تصميم المنحوتات الجدارية، و عرضها عليّ. لم يحصل نقاش حولها، بل بحثنا موضوع موعد سفره إلى إيطاليا، وتهيئة مكان العمل (ستديو) لنحتها بمادة الطين، مع مساعدين له، و من ثم صب قوالب المنحوتات. و هيّأت المبالغ اللازمة و سافر إلى فلورنسا، والتقى هناك بالنحات محمد غني الذي كان طالباً آنذاك، و كان من بين مساعدين كثر في المرسم، الذين عملوا تحت إرشادات جواد في تهيئة المنحوتات بصيغها الطينية قبل الصب.

× من اختار مكان النصب و المشرف على العمل؟

– أنا اخترت المكان، من غير بحث أو نقاش مع أمانة العاصمة التي كان أمينها آنذاك عبد المجيد حسن. كما اخترت المشرف على العمل عبد الأمير أحمد.

× من اختار حجر تغليف النصب؟

– أنا الذي اخترت حجر (الترافرتين)، و كلفت آنذاك شركة ألبرتي الإيطالية المتخصصة بتجهيز الحجر.

× من اختار الشركة التي صبّت المنحوتات و من دقق جودة العمل؟

– كان جواد الشخص المسؤول عن جودة العمل، و عن نوعيته و عن اختيار المعمل الذي صبّت فيه المنحوتات، و عن المساعدين له. و اقتصر دوري على دفع المبالغ المتطلبة لذلك.

× من اختار المقاول الذي قام بإنشاء الهيكل الكونكريتي، و هل كانت مناقصة أم اختياراً؟

– لم تكن مناقصة بل اختيار قمت أنا به. و كان اختياري المقاول حسيب صالح، بسبب قناعتي بكفاءته و قدرته على تنفيذ المشروع بالكفاءة و الوقت المناسبين. و لم يهيئ مواصفات تفصيلية للمنشأ، و إنما كان يأخذ التعليمات الإنشائية من المهندس إحسان شيرزاد، الذي وضع التصميم الإنشائي للنصب.

× في أثناء قيام جواد بالعمل، زرته مرات عديدة في فلورنسا، ما هي مهمتك، و هل أخذت موافقة من أحد على هذه الزيارات؟

– زرت جواد عدة مرات في فلورنسا، و ذلك للاطلاع على سير العمل، بهدف تسهيل مهمته، لا أكثر و لا أقل. فكان سفري و الموعد بقرار خاص مني.

× بعد مرور العام الأول على الثورة، أرسل من فلورنسا قطعة واحدة من مجموعة نصب ١٤ تموز و نصبت. لماذا أطلق الناس عليها تسمية العكركة/ الضفدعة؟

– شكل الضفدعة/ العكركة في اللغة العامية، غير مستحب لدى غالب المجتمع العراقي، فجاءت التسمية انتقاصاً لشكل المنحوتة الأولى التي نصبت على الجدار.

تجاوز جواد في هذه القطعة النحتية الصورة الواقعية المبسطة التي يفهمها غالب الناس، من غير مرجعية فنية ناضجة، و من غير تربية فنية منذ الطفولة. ففي مفهوم العامة، الضفدعة شيء قبيح، و لهذا أطلق عليها هذا الاسم، بينما هي من بين أكثر قطع جواد تعبيرية.

× لماذا لم تحضر الاحتفال الذي أقيم بمناسبة تعليق هذه القطعة و افتتاح نصب الجندي المجهول في الاحتفال الأول لثورة ١٤ تموز؟

– أكملت العمل في حوالي ١٠ تموز ١٩٥٩، و تعمدت السفر، كي لا أحضر الاحتفال، و كي لا يراني عبد الكريم قاسم، و يشير إلى موضوع التمثال، مما يشكل إحراجاً بالنسبة لي.

× هل كلفك عبد الكريم قاسم أن تضع تمثالاً له في النصب، و هل بُلغ جواد بذلك؟ و ما علاقة النحات خالد الرحال بكل هذا؟

– لم يكن الطلب مباشرا، و إنما تلميح لا أكثر، و بصيغة مؤدّبة جداً.

علمت بقلق جواد و غضبه من الرسائل التي بعثها لي، فسافرت مباشرة إلى فلورنسا في اليوم التالي. بعد وصولي، كان جواد بانتظاري في أحد المقاهي عند الساحة المقابلة للفندق، أي الساحة الرئيسية، فوجدته مضطرباً و قال لي: هل طلب عبد الكريم قاسم أن أضع تمثالاً له بين المنحوتات في النصب؟ أجبت: لا، و من قال لك ذلك. و أضفت، كنت قبل يومين مع عبد الكريم قاسم، و أخبرته بأنني سأسافر لتدقيق العمل في فلورنسا، و لم يطلب مني وضع تمثال له. فهذه شائعات لا صحة لها. أما تفاصيل الحوار فقد ذكرته في كتابي "الأخضير و القصر البلوري". فارتاح جواد. و بعد رجوعي إلى بغداد تكررت الشائعات حول طلب عبد الكريم قاسم، و كان للنحات خالد الرحال دور في هذا الموضوع.

× بعد مدة قليلة و أثناء قيامه بالعمل مرض جواد، و أدخل مستشفى الأمراض العصبية، من الذي زاره و أخرجه من المستشفى و كيف حصل ذلك؟

– لم يستطع جواد أن يتحمل الضغط النفسي عليه، مما أدى إلى إصابته بمرض نفسي، خاصة عندما علم أن وزن التمثال الذي بعثه إلى بغداد كان أسمك وزناً مما اتفق عليه مع المعمل. و زيادة الوزن يزيد كلفة الصب. إضافة إلى الشائعات التي وردت لسماعه بطلب عبد الكريم قاسم وضع تمثال له في النصب. فأودعته الجهات الرسمية الإيطالية المستشفى.

ذهبت إلى المستشفى و أخرجته، بعد أن تعهدت إلى إدارة المستشفى بسلامته خارجها. كان في انتظاري خارج المستشفى لورنا زوجة جواد و محمد غني و بلقيس شرارة.

× من هو الذي قام بتنظيم رفع المنحوتات إلى موقعها على الجدارية ؟

– اخترت عبد الأمير أحمد، لما له من خبرة عامة و خبرة متميزة بحرفته كنجّار، فكان المسؤول عن هذه العملية المعقدة.

× ما هو دور جواد عند وصول المنحوتات، و من اختار الخبير الإيطالي؟

– عند وصول المنحوتات جميعها، و كان عددها ١٣ قطعة، ما عدا القطعة الأولى التي وصلت قبل عام،أشرف جواد على ترتيب قطع المنحوتات، ونظمها على الأرض كما يتعين أن تكون على الجدار. و اختار خبيراً إيطالياً ليقوم بلحم المنحوتات على الجدار. وصل الخبير إلى بغداد بعد وفاة جواد، و باشرنا العمل فوراً. و كان كلما يثبت تمثال يغطى بقماش (الجنفاص) و ذلك لكي لا يطّلع أحد عليه من الخارج. لكني كلفت أحد المصورين العراقيين الممتهنين، لم أعد أتذكر اسمه، و قد هيأت له رافعة ليتمكن من الاقتراب من كل منحوتة، و بالارتفاع المناسب لكي يقوم بتصويرها قبل أن تغطى بالجنفاص. و كتبت نص الكراس، مع نسخ من الصور، و سلمتها إلى جبرا إبراهيم جبرا، و طلبت منه تصحيح اللغة، على ألا يذكر اسمي، لكي لا يتذكرني عبد الكريم قاسم. أودعت الكراس المطبعة، حيث اكتمل الطبع قبل الاحتفال.

× ما هي المبادىء التصميمية المعمارية التي استعملتها في تصميم النصب و لماذا؟

– هنالك ثلاثة مبادئ، أولا: رفع المنحوتات عن الأرض لمشاهدتها من مساحات بعيدة، و قررت أن أضع النصب في مدخل حديقة الأمة. ثانياً: سُخر المبدأ التصميمي المصطلح عليه بالانتاسيس entasis، و هو تصحيح خدعة البصر، حيث يظهر عنصر البناء كالعامود، كما لو كان منحنياً للداخل، أو الجسر beam كما لو كان هابطاً. و رفع القسم السفلي من اللوحة ببعض السنتمترات و جعله محدّباً إلى الأعلى، و كذلك السطح منحنياً إلى الأعلى بالدرجة نفسها، لكي لا يؤلّفا خطاً مستقيماً، و لا يظهر النصب بسبب حجمه الهائل ومسافة الباع span، محدّباً إلى الأسفل، و تراه العين كما لو كان هابطاً. لقد سُخّرت هذه المعالجة كثيراً في العمارة الإغريقية، ويعتقد بعض الباحثين بأن السومريين هم أول من استعمله، في مدرجات الزقورات. كذلك برزت نهاية اللوحة عن قاعدتها و جعلت ظاهرة أكثر مستقرة و ثابتة، و جعلت نهايتها ترتفع باتجاه منحن إلى الخارج، ذلك لمنح استقرار بصري إلى اللوحة بالرغم من باعها الطويل. إضافة لهذه المبادئ، جاءت نسبة ارتفاع اللوحة عن الأرض ٦ أمتار، بينما ارتفاع اللوحة ١٠ أمتار، فتؤلف نسبة قريبة إلى نسبة المقطع الذهبي، مما يجعل العلاقة البصرية بينهما مريحة.

× ما الفرق بين التصميم المعماري و التصميم النحتي، و هل كان لك دور بالتصميم النحتي؟

– يهيئ التصميم المعماري الظرف المناسب و القاعدة للتصميم النحتي، و الرؤية أحياناً العامة له. و كنت أنا المسؤول في هذه الحالة. و لو لا هذه اللافتة الكبيرة، لربما كان النصب عبارة عن تمثال جندي على قاعدة تعبّر عن تحقيق النصر. و هو ما نشاهده في الأنصبة في مختلف المدن الأوروبية. أما التصميم النحتي الذي صممه جواد ، فلم يكن لي دور فيه. وقد تمتع جواد بكامل الحرية، لتحقيق مثل هذا العمل الضخم، من حيث الشكل أو من حيث الكلفة.

× ما كان دور خالد الرحال؟

– علمت أن خالد كان يسعى إلى أن يقنع عبد الكريم قاسم بعمل تمثال له ضمن النصب – لا أدري مدى صحة تلك الشائعة – و لكن حينما حاول خالد أن يدخل إلى ساحة العمل، منع من دخول الساحة، لكي لا يطّلع على أشكال و محتويات المنحوتات الجدارية، و التي كانت مطروحة على الأرض. منعه عبد الأمير أحمد الذي كان مسؤولاً عن إدارة ساحة العمل.

و بعد يومين أو أكثر، كنت في ساحة العمل، فجاء مصوران عسكريان، وقالا إنهما يريدان تصوير المنحوتات، فأخبرني عبد الأمير بذلك، و قلت له أخبرهم أنها منطقة عسكرية و التصوير ممنوع. و طلبت منه تغطية جميع المنحوتات حالاً، لأنني خمنت ربما سيذهبان إلى سطح عمارة مرجان ويصوران من هناك، و ربما هذا ما حدث.

× ما هي المدة التي اكتمل بها العمل الإنشائي؟

– انتهى العمل الإنشائي خلال ستة أشهر، أي من بداية عام ١٩٥٩ إلى بداية شهر تموز.

× ما كان أجر جواد سليم؟

– كان أجره ٣٠٠٠ دينار عراقي.

× ما هي الأجور التي تقاضيتها عن هذا النصب؟

– لم أتقاض أجراً على التصميم، و لا على تهيئة التصاميم، و لا على الإشراف على العمل، و الأمر نفسه كذلك بالنسبة للأنصبة الأخرى، نصب الجندي المجهول و نصب الحرية.

× تذكر وتؤكد على اسم النصب بـ ١٤ تموز، و الآن يطلق عليه نصب الحرية، متى استبدل اسم نصب ١٤ تموز باسم نصب الحرية؟

– لا أدري كيف استبدل الاسم بنصب الحرية، من قبل من و متى، فلا علم لي بذلك، ربما غيّروا الاسم تنصلاً من ثورة ١٤ تموز، بعد أن استولى حزب البعث على الحكم.إذ عندما تم تكليفي من قبل عبد الكريم قاسم، تصميم نصب ١٤ تموز، كلفت جواد بهذا الموضوع و ليس الحرية. و محتويات المنحوتات الجدارية دلالة واضحة على ثلاث مراحل، الجهة اليمنى تشير إلى حالة العراق ما قبل الثورة، و الوسطى ترمز إلى يوم ١٤ تموز ،والجهة اليسرى تشير إلى توقعات ما قد يحدث في العراق بعد الثورة. أما نصب الحرية، فصممته في ما بعد، و أنشأت قاعدة له في ساحة الطيران. وكلفت فائق حسن بتهيئة صورة هذا النصب. و أرسلتها إلى إيطاليا، لعمل الجدارية من مادة الموزاييك الزجاجي. بعد أشهر وصلت المادة، و نصبت في الموقع، و لم يزل نصب الحرية قائماً. لا أدري لماذا وسائل الإعلام تكرر استعمال التسمية الخطأ!

× لماذ أُحلت إلى التحقيق بعد انقلاب ٨ شباط، عام ١٩٦٣ حول كلفة الأنصبة الثلاثة؟ و ماذا كان موضوع التحقيق و نتائجه، و من حقّق معك ؟

– تشكلت لجنة تحقيق من قبل وزارة البلديات، يرأسها شخص لا أتذكر اسمه الأول، لكني أتذكر لقبه كان: شكارة. فطلبوا مني جميع السجلات لغرض تدقيق حسابات الأنصبة الثلاثة: الجندي المجهول، نصب ١٤ تموز و نصب الحرية. بعد التدقيق الذي دام عدة أشهر، تم استدعائي مرة واحدة، و كان ذلك في السجن المركزي، الذي كان يقع في باب المعظم. فسألني رئيس اللجنة من أن هنالك عربة لنقل التراب و الحجر، مفقودة. فماذا تقول؟ إن عربة نقل مثل هذه لا تزيد كلفتها، حسبما أتذكر، عن دينار أو دينارين. كان أسلوب السؤال غاضباً، فسألته: هل عندك سؤال آخر غير هذا؟ أجاب: لا، ثم كرّر: ماذا تقول؟ أجبته: أرى أن تراجع طبيباً نفسانياً، و تركت اللجنة، و لم أسمع منهم شيئاً بعد ذلك.

و قلت لنفسي، ستزول هذه الحكومة، و معها ما تتضمن من قادة و إداريين و محاسبين و موظفين، و تزول معهم ذكراهم و غضبهم، لكن هذه الأنصبة ستمتد في الزمن. إلا أنني كنت بعيداً عن الصواب، عندما هُدم نصب الجندي المجهول.

الاحتفال الذي اقامته المدى بمناسبة الذكرى الخمسين لرحيل جواد سليم